Coptology

ميلاد
الابن الوحيد الأزلي
ربنا يسوع المسيح بالجسد

دكتور
جورج حبيب بباوي

٢٠٠٩

www.coptology.org

ميلاد الابن الوحيد الأزلي – ربنا يسوع المسيح – بالجسد
الذي قلب كل القيم والموازين، ورد المحبة وقوتها الشافية
إلى مكانها الحقيقي

التجسد والنبوة:

١– في ذكرى تجسُّدك يا ابن الله تعبر أمامي قرون التاريخ القديم. أنظر إليها فأجد أن ذلك الحدث الفريد – الذي وقع في قرية لم يسمع عنها أحد إلاَّ في نبوة قديمة[١] – لا زال حدثاً جديداً يدق أبواب الثقافات كلها ... والجديد فيه هو أن الله اتخذ إلى الأبد مكاناً له في حياة البشر وتاريخهم، بتجسده من القديسة مريم، هذه التي لم نقرأ عنها في كتب عظماء المؤرخين، بل في نبوات الأنبياء.

٢– والنبوة ليست قدرة عقلية تنطق بما هو آت، بل هي إلهام إلهي يفتح آفاق الحياة والفكر على ما سيأتي وعلى ما هو حق. النبوةُ جديدةٌ؛ لأنها من الله الذي لا "قديم" فيه. والنبوةُ نافذةٌ على ما يعجز الإدراك عن أن يستوعبه، هكذا سبقت النبوة تجسُّد ابن الله، لا لكي ترتب الأحداث، ولا لكي تُعلن عنه ... هذه أمور بسيطة إذا ما قورنت بالحدث نفسه، حدث دخول الله في صميم وجوهر الحياة الإنسانية ليبقى فيها إلى الأبد، الإله المتجسِّد دائماً والآتي بتجسده دائماً إلى كل إنسان، طالما يوجد إنسان في هذا الكون. ولكن النبوة تسبق التجسُّد؛ لأن التجسُّد هو قلب النبوة وجوهرها، هو ما لا يخطر على قلب إنسان، هو ما يفوق كل توقع ويتخطى أحلام البشر.

٣– قبل ميلادك بالجسد يا ابن الله كان الله والإنسان على طرفي نقيض، تفصل بينهما هوة الخالق والمخلوق: اللاهوت والإنسانية. كانا كلاهما بلا وسيط يقدر على الجمع بينهما. هنا انبرت الثقافة لملء هذه الهوة بالشرائع والأنظمة. هذه الشرائع وتلك الأنظمة أصبحت مرآةً يرى فيها الإنسان نفسه، لا مرآةً يرى فيها الله. وهكذا غذَّت هذه الشرائع المعارك الفقهية، وخلقت المدارس القانونية التي عكست صراع الإنسان مع أخيه الإنسان، وولَّدت شهوة القوة والبطش والاستبداد والقهر، بل والقتل، ليس فقط في مدارس القانون، بل في كل ثقافات البشر وعبر كل العصور. وهكذا جاءت هذه الأنظمة لا لكي تسد الهوة بين الله والإنسان، بل لكي تخلق مئات الفجوات بين البشر، بل وتشتت الجماعات؛ لأنها خلقت – باسم الشريعة أو القانون – سيادةً للإنسان على أخيه الإنسان.

---

(١) "وَأَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمٍ أَرْضَ يَهُوذَا لَسْتِ الصُّغْرَى بَيْنَ رُؤَسَاءِ يَهُوذَا لأَنْ مِنْكِ يَخْرُجُ مُدَبِّرٌ يَرْعَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ" (مت ٢: ٦).

٤- لقد فشلت الشرائع؛ لأنها خلقت الأنظمة، التي صار بعضها بمثابة قيودٍ حديديةٍ وسجونٍ لأهم ما يملكه الإنسان، وهو الفكر. ولذلك، لا عجب أنْ أطلقت هذه الأنظمة بذار التمرد والثورة من كوامنها؛ لأن الحرية القابعة في الوجدان لا يمكن أن تنام طويلاً. لذلك سوف يظل صراع القانون مع الحرية ومع التجديد ما ظل بشرٌ على الأرض.

٥- والنبوةُ لم تكن شريعةً، بل كانت شرارةُ التجديد، شرارةٌ يلقي بها الروح الإلهي في قلوب البشر حتى ما يرفع هؤلاء عيونهم إلى ما هو أعظم وأعلا، وإلى ما لا يمكن لشرائع أن تنطق به.

٦- ليس عبثاً أنْ ضَمَّ العهد القديم ثلاث طبقات متماسكة: النبوة، والتاريخ، والشريعة. في داخل هذه الطبقات الثلاثة وُلدت العبادة ... المزامير والأناشيد وطقوس الذبائح ... الخ. ولكن ظلت النبوة ترنو الى آفاق أعظم من التاريخ والطقوس. هي لم ترفض الشريعة، ولكنها كانت تسبق الشريعة معلنةً فجر الحرية: العهد الجديد الذي سوف يكتبه الله على قلوب البشر لا على ألواح الحجر، وانسكاب معرفة أعظم من تلك التي عُرفت في غابر العصور، هكذا نطق النبي أرميا[٢] الذي قضى أحلك أيامه في بئر مظلمة؛ لأن سلطة الملك أرادت أن تبطش به.

وهكذا أيضاً بعد مجيء ابن الله إلينا بالجسد، لخَّص رجلٌ مات شهيداً تحت حجارة الغيظ والانتقام، مراحل تطور الوعي الإنساني بدايةً من سكنى الله في هيكل من الحجر إلى سكناه الدائم الأبدي في قلوب البشر (خطاب اسطفانوس في سفر الأعمال ص ٧).

أليست هذه مفارقة غريبة تدفعنا إلى التساؤل عن علاقة المصير الأليم للأنبياء بما تجيء به النبوة من دعوة سامية لا مجال ولا مكان لها في التاريخ القديم ولا حتى في الشرائع.

٧- وهكذا لم يقبل الأنبياء أن يكونوا مشرعين وواضعي قوانين. هكذا عاش اشعياء وحزقيال وارميا وغيرهم. اختاروا فقط أن يبشروا بما هو حق وآتٍ، اختاروا أن يلمسوا جمرة الشوق إلى الله، فيخبرون بأن ما سوف يأتي هو أعظم ... فيما تذبح الشريعةُ بعضهم مثل المعمدان، ويوضع أشعياء – حسب التقليد القديم – في داخل جذع شجرة لكي ينشر بمنشار السلطان.

٨- هكذا حمل المسيح يسوع لقب "النبي" لا لأنه جاء بشريعة وقوانين وفرائض، بل لأنه جاء لكي يكمل ما سبق وأخبر به أشعياء النبي: "روح الرب عليَّ لأنه أرسلني لكي أبشر المساكين، لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للأسرى بالحرية وللعمي بالبصر وأرسل المستعبَدين (المنسحقين) إلى الحرية وأبشر بسنة اليوبيل (سنة الرب المقبولة) التي كانت الديون فيها تُلغى والعبيد يصبحون أحراراً" (راجع لوقا ٤: ١٧ – ١٨).

---

(٢) "هَا أَيَّامٌ تَأْتِي يَقُولُ الرَّبُّ وَأَقْطَعُ مَعَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ وَمَعَ بَيْتِ يَهُوذَا عَهْداً جَدِيداً" (أرميا ٣١: ٣١).

وعندما جلس على الجبل ليعطي دستور الحياة الآتية، ألغى قانون الانتقام "عين بعين" بدستور المحبة ومقاومة الشر بالخير ومحبة الأعداء. لم يكن هذا تشريعاً جديداً، بل كان إطلاق شرارة المحبة والحرية وكسر القيود.

٩- يمر على نداء العظة على الجبل اليوم عشرون قرناً من الزمان، ومع ذلك لا يزال الأقوياء – وقد فهموا أن الشريعة القديمة باقية – يقولون إنك جئت لا لكي تنقض، بل لكي تُكمِّل (مت ٥ : ١٧)، فقد خافوا من الكلمة "أُكمِّل"؛ لأن الكمال ليس في تحريم الزنا بالجسد، بل في إدانة "زنى القلب" (مت ٥: ٢٨). والحقدُ ليس في الضرب والقتل، بل في قلب الإنسان المريض الذي لا تملك الشريعة إليه طريقاً. لم "ينقض" لأنه لم يأت بالنقيض، بل جاء بما يصنع الكمال، وينقل الإنسانية المعذبة بالكراهية وشهوة الانتقام إلى رحاب المحبة.

التجسد دعوة للوحدة:

١٠- الانفصال والتقسيم وخلق الحواجز والموانع سهلٌ وميسور ... انفصال المجتمع وتقسيمه لا يحتاج إلى طاغية يفرضه، بل إلى طاغية يحركه.

التقسيم خُلِقَ من أجل تناسق الأنظمة لكي تعمل معاً في انسجام، ولكن سرعان ما ينقلب التقسيم لكي يصبح أداةً سهلةً في يد الذين يسعون إلى السيطرة واستعباد الناس.

قد تكون الحواجز ضرورة لمنع بعض الشرور، ولكنها تعجز عن قلع بذرة العنف والتطاول على الآخرين. قد تكون الموانع مطلوبة لحجز المياه وإعطاء الحياة فرصة النمو، ولكن هذه تختلف عن تلك الموانع العقلية التي يخلقها الخوف، ويضعها البعض أمام غيرهم من البشر حباً في التسلط وامتلاك حرية الاختيار لديهم.

١١- لكنك جئت – يا ابن الله – باتحاد اللاهوت بإنسانيتنا، ونقول "بإنسانيتنا"؛ لأن كلمة "الناسوت" لم تعد صالحة في زمانٍ نزع فيه محبو الانفصال والتقسيم وخالقو الحواجز والموانع، كلمة "الناسوت" من أصلها التاريخي الحي، وهو "الإنسان". لقد أصبحت كلمة "الناسوت" كلمة مجردة *abstract* تلقي في الوعي فكرة مجردة، لكن كلمة "الإنسان" هي الحقيقة المعاشة. وحتى كلمة "اللاهوت"، فقدت جمالها بسبب سوء الاستعمال. وأصبح من الضروري أن نقول "الله" بكل ما في هذه الكلمة من إشراقات وجمال. لقد تحولت كلمة "اللاهوت" أيضاً إلى بؤرة "التجريد" *abstraction* خوفاً من دخول الله دنيا وعالم وحياة الإنسان.

١٢- لكن وميض برق "بيت لحم" لا زال يشع رغم تراكمات النظريات وفلول الحياة القديمة، فقد اتحد الله بالإنسان. لكن قافلة التاريخ تمضي ليركب أريوس "جمل" الانفصال: إن المولود ليس هو الله، بل "إلهاً مخلوقاً" مثل "آلهة الإلياذة" وغيرها من أساطير اليونان.

وها هو نسطور يلحق بالقافلة ليركب "حمار" التهكم على تجسُّد ابن الله: لقد تجسَّد، ولكن الإنسانيةَ فيه لم تنل شيئاً.

وينضم للركب آخرٌ ضاق بحياته الإنسانية، فبعد سنوات النسك والزهد، رذل الجسد تماماً، إذ لم ينل الجسد تجلياً أو تجديداً، ولذلك عندما رأى – أوطاخي – الله المتجسِّد، وكان متعباً من جسده ويريد أن يتخلص منه، ألقى بهذا الجسد الصغير في بحر الألوهة مثل نقطة "عسل في محيط من الماء".

هكذا أيضاً عثر أبوليناريوس، فقد أدرك بفطنة ويقظة أن الشرَّ كامنٌ في العقل والإرادة، وأن الإله المتجسِّد لا يمكن أن يكون إنساناً كاملاً؛ لأن العقلَ، ذلك الينبوع المتدفق، لا يخلو من الشرور، وبما أن الكلمة هو القوة العاقلة، فهو بالتالي لا يحتاج إلى عقلٍ أو إلى نفس إنسانية.

١٣- تلك هي تراكمات الحضارة، وميراث ثقافات البشر في كل مكان وزمان.

هل يُعقل أن يتجسد الله؟ وأيُ عقلٍ يمكن أن نزن به التجسد؟!!

قبل أن نسأل السؤال علينا أن نفتش عن طريقة البحث. وعندما نسأل السؤال، علينا أن نقف ونفتش عن المرجعية، ومن الذي يمكنه – بكل صدق – أن يجيب عليه.

عقل أريوس مشغولٌ بتعالي الله. وعقل نسطور وأوطاخي يجد في الجسد عيباً لا يليق. ميزان أريوس هو القوة التي لا يمكن أن تتواضع. وميزان نسطور هو العزة التي تترفع. وخوف أوطاخي من الجسد، هو بدوره عودةٌ إلى الله الذي لا يريد أن يدخل دنيا الإنسان وحياته. وأمَّا عثرة أبوليناريوس فهي تعني عدم كمال خلاص الإنسان، فما لم يتخذه الابن لم ينل الشفاء.

١٤- وبالرغم من الجهد المبذول، ما تزال الحواجز والموانع قائمة، وما يزال الانفصال والتقسيم يسيطر على حياتنا الفكرية. لا زال محبو الانفصال يطاردون الجسد الإنساني باسم التوراة، حيث يغلقون باب الحرية الروحية باسم الطهارة. لا زال سادة التقسيم يقولون إن الإتحاد بالمسيح مستحيل، وإن روح المسيح لا يسكن فينا. كأن سكنى الله في الإنسان أو تجسُّده كانت قاصرة عليه هو وحده، هكذا يحاولون إفساد الحدث الأكبر، فيخلقون "سدنةً" وطقوساً وشرائعَ تحفظ المتجسِّد بعيداً تماماً عن غاية تجسده، وهي أن يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد (يوحنا ١١: ٥٢).

ولا يكتفون،

فعندما سلَّم المتجسِّد حياته في وليمة الفرح الأبدي "الإفخارستيا"، أطلت الموانع والحواجز باسم التاريخ: لا يمكن لمن يجلس في العلية أن يعطي جسده. وهكذا وجد الكلمة خالق كل الأشياء نفسه مثل البشر الذي خلقهم، عاجزاً أمام أبعاد الزمان والمكان.

فيما بعد، سجنوا المسيح في جدل عقيم: ما هو نوع ذلك الجسد والدم؟ وكيف وكيف ..إلخ

وكأنه لابد من إقامة كل الموانع العقلية لكي لا تصل حياة المتجسِّد إلينا. وتحولت الكلمات، بل وحتى المصطلحات نفسها، إلى "ستارة" أو "قناع" يخفي المأرب الحقيقي: لا اتحاد بين المسيح والبشر. هو في مكانه في السماء، ونحن هنا على الأرض، وعلينا أن نمارس ما نريد ولكن باسمه؛ حتى نعطي شرعية لكل ممارسة، حتى تلك التي تهدم الوحدة السرية، بل وحتى تلك التي تطلق الأسرى من سجن شرائع وطقوس موسى، فتبقى الحواجز والموانع، ونخلق طبقةً من الوسطاء بين المسيح نفسه وبين البشر، لقد انتهى التجسُّد، و لم يعُد ابن الله آتياً لكل إنسان، فلا يجوز الاقتراب منه أو حتى النطق باسمه قبل الحصول على تصريح وفرمان.

١٥- لكن المتجسِّد يضحك شفقةً بهم، لقد جاء إلى الإنسان العطشان إلى الحرية، وجاء ليكون لنا حياة أفضل (يوحنا ١٠: ١٠)، والحياة مثل نهرٍ هي، يتدفق في صمتٍ، يعبر كل السدود، بل يجرفها.

المسيح خالق الحياة، والذي هو الحياة لا يمكن أن يترك الحياة تحت رحمة المستعبَدين للقوة، وعابدي السلطان والباحثين عن السيطرة.

المتجسِّد لا يطفئ جذوة محبة الإنسان رغم ضعفها، فهي تلك "القصبة المرضوضة والفتيلة المدخنة" (مت ١٢: ٢٠) التي تشتعل عندما يعبر عليها روح الرب، وينفخ فيها المسيح فيؤججها.

ليس عبثاً أن تقرأ الكنيسة رسائل مضطهد الكنيسة قبل الإنجيل، شهادةً على أن بشارة الحياة تقيم الموتى وتحرر الأسرى، فقد بدد الرب دخان شاول الطرسوسي عندما أشعل فتيلته.

التجسد وذهنية الموت:

١٦- تُسمَّى "المقابر" في بعض بلاد الغرب "أرض السكوت"، وهو الاسم العبراني القديم "شيؤل"، أي الحفرة، أو الهاوية. أرض السكوت هي نفسها أرض الموت. وللموت ذهنية خاصة قوامها: النهاية – انعدام الحركة – الأكفان – ثم القبر نفسه.

١٧- لم يدخل المتجسِّد مقبرة التاريخ، ليس فقط لأنه قام في اليوم الثالث، ولكن – بالإضافة إلى ذلك – لأنه قام متجسِّداً وظلَّ متجسداً بعد قيامته.

و لم يبقَ المتجسِّد في "أرض السكوت" بل هو دائماً ما يعبر إلى الوعي والقلب في كل يوم. فتراه يتحرك في التاريخ نفسه، يأتي يوماً بالقاتل موسى الأسود، ويوماً بالمتعلم أوغسطينوس، يجتذب الجندي

باخوميوس، والفلاح أنطونيوس، والمجاهد أثناسيوس، والفيلسوف أوريجينوس، وينقل – بواسطة هؤلاء – قبساً من نوره إلى البشر.

١٨– لكن ذهنية الموت تأبى إلاَّ أن تجعل من يسوع حدثاً انتهى منذ أكثر من ٢٠٠٨ سنة. لكن ما يجب أن نلاحظه هو اغتراب ذهنية الموت عن المحبة.

عندما قارن سليمان الحكيم بين المحبة والموت، قال إن المحبة قوية كالموت. كان يرى ثمرة المحبة ويقارنها بثمرة الموت. الموت يثمر الفناء وانعدام الحركة، وبقاء بقايا الإنسان في الأكفان، ولا يقوى أحد على مقاومة ذلك. هكذا بقى هتلر وستالين، وهم أقرب طغاة الأرض إلى زماننا في أكفانهم وقبورهم، وأسدل التاريخ عليهم ستاراً من الصمت. أمَّا المحبة فهي خالقة، حتى على مستوى البشر؛ لأن بقاء النوع البشري لا يمكن فهمه بدون المحبة. والمحبةُ إلهام لأنها تبني ولا تدمر. والمحبة عندما تشرب من ينبوع المحبة، الروح القدس (رو ٥: ٥)، تصبح أقوى من الصمت وتجرف كل مقومات ذهنية الموت.

١٩– يسوع المسيح هو الإله المتجسِّد الآتي دائماً، والدليل على ذلك ليس فقط في العشاء الرباني السري وليمة المحبة والحياة، بل في بقاء الإنسانية التي اتحد بها.

التجسد والحلول المتبادل في الثالوث Perichoresis

٢٠– صحيح أن التجسُّد، أي الإتحاد بالإنسانية (الناسوت) قاصر على الابن له المجد، لكن مدارس الانفصال والتقسيم تفشل في إدراك إعلان يسوع المسيح نفسه "أنا في الآب والآب فيَّ" (يوحنا ١٠: ٣٨)، لذلك يجب أن تبقى بعيداً، لأن يسوع المسيح الإله المتجسد قد جاء لكي يوحدنا بالثالوث من خلال أقنومه المتجسد.

لقد رفع كل حواجز وموانع الإتحاد: الخطية – الموت – الدينونة.

وفتح باب الإتحاد من خلال تجسُّده، لأن جسده أو إنسانيته هي التي عبرت هذه الحواجز.

لقد عبرت إنسانيته الخطية والموت بالحياة الكاملة التي سُلِّمت للآب.

وعبرت إنسانيته الدينونة لأنها رفعت حكم الموت بالصليب (كولوسي ٢: ١٤).

لقد عبر الرب كل هذا لأجلنا؛ لكي ينقلنا من الموت إلى الحياة، من الدينونة إلى المجد الأبدي.

٢١– لكن خلف حركة المحبة هذه، نرى حركة محبة الثالوث، تلك التي لا يمكن أن يستوعبها إنسان الموت أو تحللها ذهنية الموت. فقد دخل الناسوت، أو الإنسان يسوع المسيح – الذي ليس له وجود منفصل عن أقنوم الابن، بل إن وجوده الإنساني "متأقنم" في الابن – دخل مجال عمق جوهر اللاهوت حيث يحل الآب في الابن وفي الروح، لكي يحل الابن في الآب وفي الروح، ولكي يحل الروح في الآب وفي الابن. إن حركة المحبة هذه، هي سكنى وحلول كل أقنوم في الآخر.

٢٢- عندما حلَّ أقنوم الكلمة في أحشاء البتول، كان إخلاء الابن لذاته (فيلبي ٢: ٦) هو أيضاً حركة إخلاء الذات للآب والروح القدس. لقد أرسل الآبُ الابنَ لكي يعلنه، فأخلى ذاته وترك الإعلان للابن، وأرسل الابنُ الروحَ القدس لكي يعلنه، فأخلى ذاته وترك الإعلان للروح. وأخلى الروح القدس ذاته وترك الإعلان للكنيسة.

٢٣- كانت البداية في الأزل، والأزل هو ما هو فوق إدراك الإنسان، ولذلك جاء التجسُّد لكي يفتح التاريخ والفكر على ذلك الأفق المستحيل على الإنسان. لقد انعكس تدبير الأزل على الزمان بتجسُّد الكلمة؛ لأن الكلمة أخلى ذاته و"حشر" نفسه في "حدود" الطبيعة الإنسانية لكي يجعل الإنسانية - في حركة عودتها إلى الحياة الإلهية - حرةً من قيود الجهل بتدبير الأزل. وفي بيت لحم دخلت الإنسانية، في يسوع، بحر اللاهوت لا لكي تذوب فيه حسب عدو الجسد والإنسانية الذي يمثله أوطاخي، بل لكي تصل إلى غاية خلقها، وهي الشبع من المحبة الإلهية التي خلقت الإنسانية حسب صورة الله (تكوين ١: ٢٦).

٢٤- وتنمو الإنسانية ليس فكرياً فقط، بل وروحياً أيضاً في قوامها الإنساني من قامة طفل إلى قامة رجل كامل، ومن استيعاب قوانين الحياة الإنسانية إلى الدخول إلى قلب الحياة الإلهية بقوة وإرادة واتحاد اللاهوت بالناسوت. بهذا وحده لم يعُد الإنسان غريباً عن الله.

٢٥- بالميلاد من البتول تعبر الإنسانية - في يسوع - من أصلها الأول آدم إلى أصلها الجديد يسوع. في يسوع نُقلت الإنسانية من الوجود الآدمي إلى الوجود الإنساني / الإلهي لكي يبقى الإنسان كاملاً في محبته لله، ولكي تنسكب هذه المحبة الأزلية في قلب كل إنسان يعيش تحت وطأة الزمان وحدود التاريخ.

٢٦- إن العقل لَيعجز واللسان يتحجر، فلا توجد لدينا كلمات يمكننا أن نعبِّر بها عن إدراك يسوع لحركة المحبة في الآب وفي الروح وهو يرى ويريد ويسمع ويحب ويختار في كل لحظة أن يبقى في هذه الحركة، في الحلول المتبادل، وأن يظل إنساناً مثلنا في كل شيء "بلا خطية".

لذا كان الصمت ضرورياً. فلا توجد كلمات أو مصطلحات قادرة على أن تعبِّر عن ذلك الوعي الذي ينمو "قليلاً قليلاً" مثل باقي البشر (صلاة القسمة). وعندما قال الرسول: "وُجِدَ في الهيئة كإنسان" (فيلبي ٢: ٦) وإنه "وُلِدَ من امرأة" (غلا ٤: ٤) فقد كان يؤكد ذلك النمو (راجع لوقا ٢: ٥٢). لكن ذلك النمو لا يمكن لنا أن ندركه لأنه نمو مَن هو "في حضن الآب" (يوحنا ١: ١٨)، لم يكن بعيداً عن الآب، فهو دائماً في الآب قبل وبعد تجسُّده.

٢٧- مُسِحَ يسوع بروح الآب لكي يصير "المسيح"، ليس عن احتياج، بل لأنه جاء "لأجلنا نحن البشر". والمتجسِّد يأخذ الروح لأجلنا لكي يمسح بذات الروح كل مَن يؤمن به. ثم يأخذ الممسوح

أو المسيح، الروح كإنسان لكي يعبر بقوة الروح (لوقا ٤: ١٤) حركة الحلول المتبادل لكي يدخل الناسوت أو الإنسان ذلك الحلول بقوة ومسحة الروح القدس لكي يحفظ للإنسانية، أي لنا نحن البشر، البقاء الأبدي بذات قوة الروح القدس كشركاء له في نوال هذه الشركة؛ لكي نتحرك به، أي بيسوع وبقوة ومسحة الروح القدس في حركة المحبة الإلهية إلى الأبد.

٢٨- إذا عبرنا من التعليم والمعجزات إلى الجلجثة، بل وإلى ما قبل الجلجثة، إلى عطاء الحرية في العلية. نجد أن المتجسَّد قدَّم قربان أو ذبيحة حريتنا في علية صهيون للخاصة من التلاميذ، وعلى الصليب علناً أمام البشرية، تقديم واحد تحركه الإرادة الأزلية.

كان يوحنا يتكئ على صدر يسوع، ولكن يسوع كان في حضن الآب "الكائن في حضنه الأبوي كل حين" (صلاة قسمة صوم الميلاد). وصُلب وهو في حضن الآب، ولذلك صرخ بلسان كل البشر متعجباً أمام جمال وعزة محبة الآب: لماذا تتركني؟ إنه الآن يرى ما سبق أن رآه بعينيه الإنسانية منذ أن بدأ يرى، تلك المحبة النارية الهائلة السامية ذات الجمال الخاص، ولكن هنا على الصليب رأى هذه المحبة يكتنفها ظلام الهاوية أي الموت، لذلك يصرخ: لا تتركني، أو "لماذا تتركني"؟ هذه الكلمات وإن كانت كلمات داود في مطلع مزمور (٢٢: ١) إلاَّ أنها صارت كلمات ابن داود.

غير أن شركة ووحدة جوهر الثالوث لا يمكن أن تنقسم، ولا توجد قوة قادرة على أن تفصل الآب عن الابن، أو الابن عن الروح القدس، لكن "مسيح الرب" ينزل إلى "حفرة الموت" الغريبة تماماً على الحياة الإلهية لكي "يسبي الهاوية". لم يعُد للموت سلطاناً، ولا يستطيع الموت أن يحفظ القوي الحي تحت مخاض الانفصال والوجع القديم (أع ٢: ٢٤) الذي عرفه آدم الأول. لقد جاء لكي يمحو كل ذلك، ولكي يبيده في داخل الحياة الإلهية نفسها؛ لكي تصل حركة المحبة والحلول المتبادل فيه حتى إلى ظلام الهاوية ذاته ويضيء الرب بنور قيامته على الموتى (أفسس ٥: ١٤) ويطل الآب والروح القدس على الهاوية ليس من بعيد - حسب البعد الإلهي لجوهر الحياة، بل من قريب في ذاك الذي نزل إلى الحفرة مختاراً لكي يدوس الموت.

الأبعاد الحقيقية لتجسُّد ابن الله

٢٩- دخل الكلمة الخالق التاريخَ من باب الضعف، فأظهر ضعف القوة. لقد تأمل شعراء المسيحية في ولادة الابن في مزود مع الحيوانات، وأدرك هؤلاء حقيقة عمل الله. فقد صار طفلاً رضيعاً ونما وصار رجلاً يافعاً جمع كل حلقات الحياة الإنسانية ما عدا "الشيخوخة"؛ لأنه "بكر الخليقة" الجديدة.

بالضعف قهر المسيح الأنظمة كلها؛ لأنه أعطى الإنسان أن يرى كيف تعجز القوة عن أن تدخل قلوب الناس، فعندما جرد ذاته حتى من جيش الملائكة (مت ٢٦: ٥٣)، وقف أمام الإنسانية مؤكداً أن الضعف أقوى؛ لأنه يخلو من الإرغام بل ويسلك طريق التودد.

جعل من الفقر طريقاً للتحرر من سلطان المقتنيات، فاكتشف النساك تلك الحقيقة الغائبة عن وعي الإنسان: أننا "نُمتلك بما نملك".

وعندما غرس الصليب "رايةً للغفران"، صار الصليب علامة البذل غير المشروط والمحبة التي لا تفرض نفسها.

٣٠- عندما قبل طبعنا الإنساني، أعلن لنا أنه ليس محباً للبشر بالكلام وحده، بل بالعمل، أي بالبقاء إنساناً إلى الأبد.

٣١- ردَّ المسيحُ المحبةَ إلى مكانها الحقيقي: محبة "الضد"، أي الإنسان، محبة "الأعداء"، "محبة البذل"، محبة "بلا حقوق"، محبة "بلا تمييز"، محبة لا تقيس العطاء بالمكانة أو المقام، محبة هي ينبوع النعمة لمن لا يستحق.

٣٢- لقد سقط عرش الكبرياء عندما تجسَّد، وعندما سجد أمام تلاميذه عند غسل أرجلهم. لقد سجد الخالق كعبد أمام العبيد، فخلع جذور الكبرياء المتأصلة في قلوب البشر، وصدم الإنسانية بهذا الفعل حتى "تفيق" من نوم الكبرياء القاتل.

٣٣- هكذا قلب الربُ الموازين والقيم، فلا دخول للملكوت إلاَّ لمن يرجع ويصير "طفلاً"؛ لأن الأطفال - قبل عصر السمعيات والبصريات - لم يكن لديهم أحلام القوة، ولكننا أفسدنا إدراكهم بما يشاهدون على شاشات التلفاز والسينما. وهكذا أصبح "الطفل" الضعيف الذي لا زال يعتمد على غيره اعتماداً تاماً هو نموذج الحياة الجديدة لمن يصير طفلاً للآب السماوي.

٣٤- عندما رسم المسيحُ أيقونة الحياة الجديدة في العظة على الجبل، عاش هو كل ملامح هذه الأيقونة: التواضع – الرحمة – السلام – محبة الأعداء، وجعل هذه الملامح شرط التلمذة.

فيا من صرت إنساناً لأجلنا لقد حاولت أن أجعل من عدد سنوات عمرك الإنساني على الأرض عبارات وكلمات، ولكن حقيقة استعلان محبتك تفوق كل ما يمكن أن يُقال.

لقد صار تجسدك أساس طقوسنا الكنيسة؛ لأننا بأيدينا نرشم أنفسنا بعلامة عهدك، الصليب المقدس. وصارت طقوسنا عودة إلى ذلك الإستعلان، ليس كفرائض بل رموز حياة لحقيقة حاضرة.

خلِّصنا يا ابن الله من ذهنية الموت تلك التي تحاول أن تغلق باب الحياة، وتسجنك في دفاتر الكتب وصراعات الفكر، وتحجبك خلف شهوات القوة والتسلط.

لكن وجهك الإلهي المتأنس سيظل يطل علينا حتى من خلف أنياب الذين يريدون أن يفترسوا ما تبقى لنا من حرية؛ لأنك أنت الذي سحقت أسنان الأشرار. فمهما حاول الذين أقاموا من أنفسهم وسطاء لكي يخلعوك من مكانك، فإنهم لن يقدروا أن ينالوا منك.

نقابلك في وجوه كل البشر، حتى الذين – عن جهلٍ – يحاربون الإنجيل من داخل الكنائس. فأنت لا تزال تحب هؤلاء، وتدعونا إلى أن نحب أولئك الذين يظنون أننا ضعفاء بالمحبة؛ لأن الصليب حلية على صدورهم.

جورج حبيب بباوي

٢٥ ديسمبر ٢٠٠٨

عيد الميلاد حسب التقويم الغربي